الباب الثاني

مراجع التاريخ المؤلفة، مخطوطة ومطبوعة

- الكتاب المخطوط.
- مقابلة النسخ أو المعارضة.
- الكتاب المطبوع.
- تقويم المرجع.
- ما كتبه الرحالة والجغرافيون.
- في نسبية المصدر والمرجع.
- الصحافة كمرجع تاريخي.
- كتب التاريخ ومراجعة في المكتبات العربية والأجنبية.

انتهينا في الباب السابق من دراسة الوثائق والمسكوكات والآثار باعتبارها مصادر التاريخ الإساسية أو المصادر التي لا تحتمل الكذب، لأنها لا إرادية، أو لأن منشئيها لم يريدوا بها ساعة إنشائها أن تكون شاهداً على التاريخ.

ننتقل الآن إلى المراجع أو الكتب التي كتبها المؤلفون وهم على وعي كامل بأنك وأنا سنقرأ هذه الكتب، وهم يودون أن نقتنع بما كتبوا وأن نميل لآرائهم. إن المؤلف يكتب المرجع أو الكتاب وهو على وعي كامل برغبته الحقيقية في أن يقرأه الناس ويأخذوا بما فيه.

ولأن هؤلاء المؤلفين بشر، فهم أحيانا عُرضة للخطأ الذي هو لازمة بشرية وعُرضة للجنوح إلى الهوى وعُرضة لفرض نظرتهم للحياة على تفسير الأحداث... وما إلى ذلك، لكل هذا وغيره كان من الضروري نقد المرجع أو معرفة ظروف كتابته وطابع كاتبه وذلك هو موضوع بابنا هذا.

والمراجع التي بين أيدينا الآن إما مخطوطة (قبل اكتشاف الطباعة وإن كان هذا لا يمنع من وجود مخطوطات بعد عصر المطبعة) وإما مطبوعة.

والمراجع المخطوطة في الواقع أكثر أهمية وقيمة بالنسبة للباحث التاريخي لأنها مصادر بكْر لم يعرفها الناس، وعادة ما يحث الأساتذة المشرفون على رسائل الماجستير والدكتوراه خاصة في مجال التاريخ الإسلامي، طلابهم على الرجوع للمخطوطات أو نشر واحد منها كملحق لرسائلهم، وأحيانا تكون الرسالة مجرد نشر للمخطوط، وذلك لسببين :

أولهما: إن المخطوطات تحوي في بعض الأحيان معلومات لا يعرفها المشتغلون بالموضوع، ففي نشرها إحياء للتراث، ونشر لمعلومات جديدة.

ثانيها : تدريب الطالب على قراءة المخطوط والتحقق من صحته.

لقد كان النساخون متوفرين في العالم الإسلامي خاصة في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وما تلى ذلك، وكان هؤلاء بديلا عن المطبعة في عصرنا الحاضر، وليس أدل على توفر أعداد كبيرة من النساخين أنه نادراً ما نجد قيام أكثر من خطاط بنسخ مخطوطة واحدة

يوزعونها على أنفسهم، فظاهرة التنسيخ أو النسخ الجماعي Pecia والتي عُرفت في أوروبا الوسيطة كانت ناشئة عن قلة عدد النساخ غير أننا نجد هذه الظاهرة كما سبق القول في أحوال نادرة بالنسبة للمخطوطات العربية، كما حدث عند نسخ تاريخ دمشق لابن عساكر وكان في ثمانين مجلدا إذ أختير لهذا العمل عشرة من النساخين انتهى كل منهم من نسخ ما سلم إليه في سنتين وهي مدة غير طويلة[1].

والذي لاشك فيه أن عصر المخطوط قد تأخر بعض الشيء في الحضارة الإسلامية، فنحن لم نر مخطوطات مؤلفة في أوائل القرن الأول الهجري أو لم نسمع أن كتابا مخطوطا ألف، بمعنى أن الفهرست لابن النديم وغيره من الكتب التي حاولت حصر الإنتاج الفكري العربي لم تشر لشيء من ذلك، وذلك يرجع في جملته لعدة أسباب :

١ – كان العرب يفضلون التعليم والتعلم بالرواية على التدوين في بداية الأمر، ولم يكن العرب بدعا في هذا فنحن نجد أن بعض الفلاسفة اليونانيين كانوا لا يرتاحون كثيرا لكثرة التدوين فهم – على حد قولهم – يفضلون وجود أفكارهم في صدور الناس وعقولهم بدلا من وجودها على جلود البقر. ومع هذا فقد ثبت أن بعض الشعر الجاهلي قد وصل إلى العرب مكتوبا.

٢ – في بداية الإسلام، كتب المسلمون القرآن، ولم يكتبوا الحديث إلا قليلا استجابة لما ورد في حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه» رواه مسلم في صحيحه.

* * *

وليس معنى هذا كله أن العرب والمسلمين كانوا ضد محو الأمية أو ضد التأليف والتدوين.

١ – في أعقاب غزوة بدر كان من وسائل مفاداة أسرى المشركين أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت كاتب رسول الله (ص) أحد هؤلاء الذين علمهم الأسرى.

وكان أبي بن كعب أول أنصاري كتب الرسول (ص). وعبدالله بن سعد بن أبي السرح أول،

(١) روزنتال فرانتز : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة أنيس فريحة. مراجعة وليد عرفات بيروت، دار الثقافة، ١٩٦١. ص ١٢.

من كتب له من قريش، وكان عدد من كتب لرسول الله (ص) زهاء أربعين كاتبا[1].

٢ – كان أمر الرسول عليه السلام بالنهي عن كتابة الحديث مرتبطا فيما يرى البعض بنزول القرآن حتى لا يختلط به، لكن المسلمين بعد ذلك كانوا في حاجة لكتابة الحديث اعتماداً على أحاديث أخرى، من ذلك ما رواه البخاري من أن أبا شاه اليمني التمس من رسول الله (ص) أن يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام الفتح، فقال عليه السلام : «اكتبوا لأبي شاه» وروى أبو داوود عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: قُلت يا رسول الله، إني أسمع منك الشيء فأكتبه. قال عليه السلام نعم. قال : عبدالله بن عمرو بن العاص : في الغضب والرضا؟ قال عليه السلام : نعم فإني لا أقول فيهما إلا حقا.

وروى البخاري أن أبا هريرة قال: ليس أحد من أصحاب رسول الله (ص) أكثر حديثا مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب.

٣ – لم يعد خوف من اختلاط حديث الرسول (ص) بالقرآن الكريم، ففي عهد أبي بكر رضي الله عنه وكان ما كان من قتل القراء والحفاظ في اليمامة قام أبو بكر الصديق بجمع القرآن من صدور الرجال ومن العسب (أصل سعف النخيل) والقضم (الجلد الأبيض) والرقاع واللخاف (حجارة بيض رقاق) والأكتاف والأضلاع، ولما تعددت المصاحف في عهد عمر جمعهم عثمان بن عفان بعد ذلك في إمام أو مصحف واحد بعث إلى كل أفق بصورة منه. وعلى هذا فالقرآن الكريم أول نص أو مخطوط كامل وصل إلينا في ظل الإسلام.

* * *

كان من الطبيعي في ظل الظروف السابقة. أن يكون حديث الرسول عليه السلام هو أول ما يهتم المسلمون بجمعه وضبطه وتدوينه، بعد أن تم اطمئنانهم على القرآن الكريم. ولقد ظل الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز يستخير الله أربعين يوما في تدوين الحديث، وخار الله له، فأذن لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث، فدون ما كان يحفظه في كتاب بعث به إلى الأمصار وكان أبو بكر هذا واليا وقاضيا على المدينة المنورة توفي سنة ١٢٠ هـ، (٧٣٧ للميلاد).

---

(١) هارون، عبد السلام: تحقيق النصوص ونشرها. القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٧٧ (١٣٩٧ هـ) ط ١ ص ١١.

ثم تنهض الدولة العباسية وينهض التدوين وتوضع مسانيد الحديث وكتبه فيؤلف في المدينة: سفيان بن عيينة ومالك بن أنس، وفي مصر: عبدالله بن وهب، وفي اليمن: معمر وعبد الرزاق، وفي الكوفة: سفيان الثوري ومحمد بن فضيل، وفي البصرة: حماد بن سلمة وروح بن عبادة، وفي خراسان: عبداله بن المبارك.. وتظهر الكتب في كل علم وفن متخذة طابع كتب المحدثين وهو إسناد الرواية «وتسري بين المؤلفين قواعد يلتزمونها في السماع والرواية والقراءة على الشيخ والإجازة[1].

* * *

ويخلط بعض الباحثين بين الوثائق والمخطوطات، وحقيقة الأمر أن المخطوطات كتب عادية، كالكتب المطبوعة التي بين أيدينا. ولكن مؤلفيها لم يدركوا عصر المطبعة فدفعوا بها إلى النساخ. إذن لابد أن يقوّم المخطوط أو ينقد على نحو ما ينقد الكتاب، ولابد من تحليل محتوى المخطوط على نحو ما نحلل محتوى الكتاب. والمادة في المخطوط مثلها في الكتاب المطبوع، مادة إرادية أراد لها مؤلفها أن تكون شاهدا على التاريخ. كل ما في الأمر أن المخطوط لأنه لم ينتشر على نطاق واسع ولم تتداوله أيد كثيرة فربما حوى حقائق ومعلومات جديدة. وتلك ميزته الرئيسية على الكتاب المطبوع.

والواقع أن التعامل مع المخطوطات يُعد أمرا في غاية الصعوبة، خاصة بالنسبة للطالب أو حتى الباحث الذي لا يمتلك الخبرة الكافية أو التجربة الطويلة فقد تحمل المخطوطة عنوانا غير عنوانها الحقيقي، والدوافع لذلك كثيرة متعددة فقد يعمد الوراق أو بائع المخطوطات إلى كتابة عنوان مثير للمخطوطة ليجعلها أكثر رواجا، وقد يتم ذلك بحسن نية وجهل أما نسبة المخطوطة إلى غير مؤلفها فدوافعه أوضح فقد يكون ذلك لرغبة الوراق في بيع مخطوطة بثمن مرتفع، وقد يكون ذلك تزويرا لاكتساب وضع معنوي، وقد يكون ذلك جهلا لتشابه الأسماء وكثيرا ما تتشابه أسماء المؤلفين.

---

(١) هارون، عبد السلام: المرجع السابق ص ١١ - ٢٨.

وقد حصر العاملون في مجال تحقيق التراث أساليب شتى لاكتشاف التزييف ومن ذلك:

١ – أن يرد في الكتاب (المخطوط) وقائع وأحداث بعض عصر المؤلف أو بعد وفاته إن كانت سنة الوفاة محققة يقينا. ويذكر عبد السلام هارون وهو محقق له نشاط وافر في مجال التحقيق أن من الأمثلة على ذلك مخطوط موجود في دار الكتب المصرية يحمل عنوان (كتاب تنبيه الملوك والمكايد) منسوبا للجاحظ ودليل تزييفه أنه يحوي باباً عن كافور الأخشيدي وما عاصر الجاحظ كافورا.

٢ – اختلاف أسلوب الكتاب (المخطوط) عن الأسلوب المعهود للكاتب أو طريقته في البحث أو المجال الذي تعود أن يكتب فيه، غير أن ذلك كله يجب أن يوخذ بحذر لأن أسلوب الكاتب ودرجة إتقانه تختلف باختلاف مراحل عمره، فعادة ما تكون كتابات المؤلف وهو كبير السن أكثر تحفظا وأدعى للدقة والتثبيت مما كتبه في مطلع شبابه.

٣ – أما أساليب الفحص الشكلية كفحص مادة الكتابة (الأحبار) وأداتها (الأقلام) والمادة المكتوب عليها (الجلد، الرق، الورق بأنواعه...) فقد سبق أن تعرضنا لها عند حديثنا عن الوثائق فارجع إليها.

٤ – نوع الخط أيضا من المسائل التي تساعد على تحقيق النص ونسبته لعصره ومؤلفه ومكانه، فالخط المغربي له طبيعة مغايرة للخط المشرقي، والخط الأندلسي فيه ميل وفيه محاكاة أو تأثيرات من الحروف اللاتينية.. وحتى الآن ورغم استقرار الخط العربي، فإن المغاربة يستخدمون الأرقام العربية (1,2,3,000) والمشارقة يستخدمون الأرقام الهندية (١ – ٢ – ٣) وقلما يضع المصريون وأهل الجزيرة نقطتين تحت الياء الأخيرة (ي) بينما يفعل ذلك الشوام.. وكان الخط العربي غير منقوط في مرحلة من المراحل ثم نقط وكان النقط يعني الشكل أي الكسرة والفتحة والضمة والغُنّة فالشكل أو الضبط كان يسميه أبو الأسود النقط. قال أبو الأسود لكاتبه القيسي: إن رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإن ضَمَمْتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف فإن اتبعت ذلك شيئا من غُنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين.

وهذه الطريقة في الشكل أو الضبط موجودة في المصاحف العتيقة.

ورغم نقط الخط وإعجامه فإن إهمال النقط والإعجام قد امتد شيء منه إلى قرون متأخرة فالناظر في خط ابن حجر من علماء القرن التاسع يرى هذا الإهمال بوضوح تام[1].

مقابلة النسخ أو المعارضة:

إذا عثر الباحث على النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف بخط يده فإنه يكون بذلك قد عثر على كنز ثمين، لكن عليه أن يتأكد أولا من أن هذه النسخة هي فعلا بخط المؤلف لأن بعض الوراقين أو النساخين يعمدون إلى كتابة المخطوط بأيديهم ثم ينسبونه للمؤلف لزيادة قيمته أو ليبتغوا من وراء ذلك سعرا كبيرا.

وأساليب التأكد من ذلك كثيرة منها:

١ – مقارنة خط المخطوطة بمخطوطات أخرى بخط المؤلف إن وجدت.

٢ – التأكد من أن المادة المكتوب عليها المخطوط كانت معروفة في عصر المؤلف.

٣ – التأكد من أن الحبر أو مادة الكتابة كانت معروفة في عصر المؤلف.

٤ – طريقة الكتابة العربية مرت بتطورات فقد كانت غير معجمة (منقوطة) ثم أعجمت (نقطت) وكان الشكل يأخذ في بعض المراحل شكل النقاط ثم تطور إلى ما نعرفه اليوم، ولابد أن تكون طريقة كتابة المخطوط متمشية مع ما تذكره المراجع عن نوع الكتابة المعروف في ذلك الوقت.

٥ – أن تكون طريقة الكتابة متمشية مع جنسية المؤلف أو انتمائه المكاني، فالخط المغربي مثلا يختلف عن الخط في مصر والشرق... وهكذا.

أما إذا كان المخطوط مكتوبا بيد الناسخ أو الوراق فمن الأفضل أن يجمع الدارس أو الباحث أكبر عدد من النسخ المخطوطة لمقارنتها معا، ليخرج في النهاية بنص موثق.

وعادة ما يحاول الباحث ترتيب نسخه في طبقات أو مراتب بمعنى أن يجعل النسخه التي كتبها المؤلف بخط يده هي النسخة الأم ثم المنقوله عنها فالمنقولة عن المنقولة عنها وهكذا

(١) هارون، عبد السلام: المرجع السابق ص ٢٩ – ٣٠.

وبطبيعه الحال فإنه من النادر ان يحصل الباحث على النسخه الام خاصه بالنسبه لمؤلفين في القرون الإسلامية الأولى

وكان من الطبيعي ان يعتري الملل النسخاين لمشقه عملهم ، لذلك نراهم يعمدون إلى بعض الكلمات فيختصرونها، لذلك لابد للباحث الذي يتعامل مع المخطوط ان يضع في اعتباره عاده النساخين هذه

وفيما يلي بعض الأختصارات الشائعة في المخطوطات العربيه

ثنا : حدثنـــا

نـا : اخبرنـــا

صـــ : للوصـــل

ســـ : للتشديـــد

ومن كتاب الشفاء لابن سينا ،

مـــح : محـــال

مـــع : مطـــوم

لامحه : لا محـــالة

لايـخ : لايخلـــو

كـــك : كـــذلك

المقص : المقصـــود

ظـ : ظاهـــر

يـــق : يقـــول

ح : حينئـــذ

بذكر الأستاذ عبد السلام هارون أمثلة أخرى منها

ثني : حدثنـــــــي

دثنا : حدثنا او أخبرنـــــا

أخ نا : اخبرنا، في خط بعض المغاربه

قثنا : قال حدثنـــا

ح : تحويل السند في الحديث

ش : الشـــــرح

الش : الشـــارع

س : سيبويـــــه

ايض : ايضـــا

لايخ : لايخفـــــى

الظ : الظاهـــــر

مم : ممنـــــوع

م : معتمد ، معـــروف

الخ : إلى آخـــــره

اه : انتهـــــــي

ع : موضع .استعمله الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط

ج : جمـــــــع

جج : جمـــع الجمـــع

ة : قريه ..... الخ

تقويم المرجع :

تناولنا فيما سبق بعض ما يتعلق بالمخطوطات كمراجع ذات طبيعة خاصة وإن كان مضمون المخطوط لا يختلف عن مضمون الكتاب المطبوع. فكلاهما مرجع او كتاب له مؤلف من البشر وهؤلاء المؤلفون متباينون (فمن مخبر عن أمر كتب يقصد فيه نفسه، فيعظم بني جنسه ويذري بخلاف جنسه وان كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين. ومن مخبر عن كتب في طبقه يحبهم لشكر، أو يبغضهم لنكر وهو مقارب الأول، فإن الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة. ومن مخبر عن شيء كتب متقربا إلى خير بدناءة الطبع او متقيا لشر من فشل أو فزع. ومن مخبر عن شيء كتب طباعا، كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره .. ومن مخبر عن شيء جهلا وهو المقلد للمخبرين».

ويذكر البيروني أن كثيرا من أخبار الهند الشائعة خاطئة لأن من قالوا بها وأذاعوها «أبعدهم عن الصواب الهوى والرياء أو الخوف والاضطهاد».

إذن لابد كمرحلة أولى لتقويم المرجع من معرفة مؤلفه أو مؤلفيه من حيث اتجاهاتهم السياسية إن وجدت، والمذهب الديني، أو الدين بشكل عام. وهل هو مستشرق مسيحي يكتب عن الإسلام؟ أم باحث يهودي في الشريعة الاسلامية؟ وكذلك معرفة موقعه الزمني والمكاني من الواقعة التي يورخ لها، بمعنى: هل عاصر الأحداث؟ هل يرويها سماعا؟ هل يبحثها من خلال الوثائق والمصادر الأساسية بعد انقضاء عصرها؟ هل الباحث جدير بالبحث الذي يخوض فيه؟ هل هو مؤهل علميا؟ على يد من درس؟ ويلاحظ أن كتابنا في العصور الإسلامية كانوا يحرصون على ذكر شيوخهم ومن تلقوا عنهم العلم. كما أن معرفة جنسية المؤلف تساعد أيضا على فهم الأمثلة التي يضربها .... الخ.

ومما يؤسف له أن كثيرين من الطلبة، بل وبعض الباحثين المبتدئين يشرعون في النقل عن الكتاب أو المرجع دون معرفة حتى اسم المؤلف في بعض الأحيان. وهذا خطأ كبير، فأنت عندما تتناول كتابا أو مرجعا لتقرأه وتأخذ عنه فكرة، فكأنك قد جلست على مائدة المؤلف، أيمكن أن تجلس على مائدة شخص لا تعرفه ثم تشرع في التهام ما يقدمه لك؟ أليس من المحتمل أن يقدم لك هذا الذي لا تعرفه من الطعام سُماً يهري معدتك ويلهب جوفك!

عنصر آخر من عناصر تقويم المرجع أو نقده : هل يغطى المرجع الموضوع الذي يتناوله تغطية كاملة أم تغطية جزئية؟ هل يتناول كل أبعاد الموضوع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية أم يغطي عنصرا على حساب العناصر الأخرى. أم يذكر عنصراً ويغفل عناصر أخرى؟ وقد يكون إغفال العناصر الأخرى ليس بعيب إن نص الباحث في عنوان بحثه أو في المقدمة على اقتصاره على ذلك، فالدكتور السيد رجب حراز مثلا أصدر بحثا عن (الأصول التاريخية للمشكلة الارترية) فنحن لا نعيب عليه إذن عدم تناول الأبعاد السياسية للمشكلة هذه الأيام على نحو مفصل، وأستاذنا الدكتور حسن محمود ألف كتابا رائدا عن الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، أي أنه قصر بحثه على ذلك فقط، فلا يلجأ باحث يريد دراسة التدخل الأوروبي في أفريقيا إلى كتاب الدكتور حسن، فيجد نقصا في موضوع التدخل الأوروبي فيعيب ذلك على الكاتب، فحقيقة الأمر أن المؤلف حدد منذ البداية مجال بحثه.... وهكذا.

إذن لابد للباحث أو الطالب أن يعرف مجال المرجع ومدى تغطيته وشموليته قبل البحث فيه.

ولابد للباحث أن يعرف الحد الزمنى الذي وقف عنده المؤلف، فلا يبحث عن ترجمة شخصية عاشت في القرن التاسع للهجرة في كتاب ابن حجر العسقلانى الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أو يبحث عن شخصيات توفيت بعد سنة (٦٨١ هـ) (١٢٨٣ للميلاد) في كتاب وفيات الأعيان لابن خليكان فالرجل أى ابن خليكان قد مات سنة ٦٨١ هـ فكيف يكتب عن أشخاص لم يعاصرهم....وهكذا.

ولابد للباحث من معرفة البعد المكاني للمرجع، فلا يعقل أن يبحث عن حيوات رجال مصر أو الجزيرة العربية في كتاب ابن حيان القرطبى (توفي ٤٦٩ هـ) المسمى المقتبس من أنباء أهل الأندلس، فالقرطبي قد نص على أنه قصره على رجال الأندلس.... وهكذا.

ومن عناصر تقويم المرجع، سنة النشر، والناشر، فبعض الناشرين يتخصصون في نشر الكتب الإسلامية وبعضهم يتخصص في نشر الكتب ذات الاتجاه الايديولوجي الخاص، وبعض الناشرين ذوو سمعة سيئة من حيث كثرة الأخطاء والتصحيف والتحريف في الكتب التى ينشرونها، وبعض الناشرين معروف عنهم حرصهم الشديد على الضبط والمراجعة.

وبعض كتب التراث نُشرت اعتمادا على نسخة مخطوطة واحدة، وبعضها الآخر اعتمد على نسخ عديدة أو على كل النسخ الموجودة.

وفي بعض الحالات يكون الكتاب المنشور كان في الأصل رسالة للماجستير أو الدكتوراه وعادة ما تكون هذه الكتب دقيقة موثقة.

وعلى الباحث أن يضع كل ذلك في اعتباره قبل الأخذ عن المرجع. ولابد للطالب والباحث أن يلم بترتيب المرجع وكيفية تبويبه أبوابا أو تفصيله فصولا، وهل استخدم المؤلف الترتيب الحولي بمعنى أنه يكتب أحداث كل سنة على حدة، أم رتبه في مقالات ورتبها هجائيا «كما تفعل دوائر المعارف» أم قسمه حسب المواقع والبلدان (تاريخ مصر، تاريخ المغرب، تاريخ الجزائر.... وهكذا) وشيء آخر مهم جدا وهو هل وضع له كشافات أو فهارس بما ورد فيه – أي في الكتاب – من أعلام كأسماء البلاد والقبائل والأشخاص.... الخ. والواقع أن مثل هذه الكشافات التفصيلية والتي تنقص كثيرا من كتب التراث المنشورة تعتبر في غاية الأهمية خاصة إذا كان المرجع ضخما متعدد الأجزاء.

ومعرفة الطالب أو الباحث بذلك كله تقيه خطورة أن تفلت الموضوعات منه، فقد يكون المرجع قد أشار للمعلومة أو المعلومات التي يبحث عنها الباحث ولكنه لا يعثر عليها إطلاقا أو يعثر عليها صدفة أو بشق الأنفس، وكل ذلك ناتج عن جهله بطريقة ترتيب المرجع.

ويقع بين يدي الباحث أحيانا كتب مجهولة المؤلف أو الناشر، ومثل هذه الكتب مجهولة المؤلف لابد أن يأخذ عنها الباحث بتحرٍّ شديد، أما الكتب مجهولة الناشر فلا خطورة منها، فقد يكون المؤلف هو نفسه الذي مَوَّل كتابه ونشره على حسابه الخاص دون أن ينص على ذلك.

ومن معايير تقويم المرجع كذلك، مدى توثيقه، بمعنى استخدام المؤلف للحواشي التي تنص على مصادر معلوماته. وفي بعض الأحيان قد لا يكون لذلك أهميه إذا كان البحث معايشة لتجربه استقاها الباحث مباشره من الواقع أو مقالاً مدعوماً بالصور أو كان المؤلف أحد صنّاع الأحداث كأن يكون وزيراً أو سلطاناً أو حاكماً..

وبعد معرفه ذلك كله والإلمام به يشرع الباحث او الطالب بقراءه الكتاب بتمعن مقارنا الحقيقة أو الحدث التاريخي في أكثر من مرجع، ولدى مؤلفين لهم أكثر من إتجاه، يتثبت مما أوردته المراجع بالاستعانة بالوثائق والمسكوكات والآثار إن وجدت، أما إذا لم توجد خاصة في فترات التاريخ القديم والوسيط، فما عليه إلا أن يُمعن التدبر والتفكير، ويقارن الحقائق بالأحداث المعاصرة لها، وطبيعة العصر حتى يخرج في النهاية بما يطمئن إليه قلبه..

وننتقل الآن إلى دراسة بعض فئات المراجع التي يجدر بالباحث الرجوع إليها، وتلك مجرد أمثلة بطبيعة الحال.

ما كتبه الرحالة والجغرافيون:

تعد كتب الرحالة والجغرافيين من أهم المراجع التي يرجع لها الباحث التاريخي بل أنها تعد مراجع جيدة من الدرجة الأولى، لأن الرحالة قوم عايشوا كثيراً من الأحداث وجابوا الآفاق وليس من رأى كمن سمع. وهذا لا يمنع من تقويم المرجع أو الكتاب من حيث معرفة مؤلفه ومذهبه الديني واتجاهه السياسي وشيوخه وغرضه من الرحلة فكل ذلك يحدد لنا درجة علمه ومدى نزاهته.

وقد حفل التاريخ الإسلامي برحالة عظام أثروا الحركة الفكرية والثقافية وكان لهم دور بارز في إمدادنا بمعلومات ثرة عن العالم الإسلامي بل وغير الإسلامي في ذلك الوقت.

فاليعقوبي قام برحلات إلى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب وألف لنا كتاب البلدان، ووضع الاصطخري كتابه مسالك الممالك، والمسعودي كتابة الشهير مروج الذهب ومعادن الجوهر، وشمس الدين الدمشقي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وابن حوقل ألف في القرن الرابع الهجري كتابه المسالك والممالك والبيروني العالم العظيم الذي عاش في القرن الخامس الهجري له كتابه القيم الآثار الباقية عن القرون الخالية، وتحقيق ما للهند من مقولة مرذولة في العقل أو معقولة. والبكري الذي عاش الربع الأخير من القرن الخامس له كتاب: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ومرجعه الشهير معجم ما استعجم، وفي القرن السادس الهجرى ألف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وفي القرن السابع كتب ابن جبير رحلته المشهورة وكتب ياقوت الحموي معجم البلدان. وفي القرن الثامن يطلع علينا الرحالة الذائع الصيت ابن بطوطة ويكتب رحلته التي نسبت لاسمه رحلة ابن بطوطة واسمها الأصلي: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

وعلى الباحث أو المؤرخ أن يدرس بعناية الرحلة التي تغطي العصر الذي يكتب فيه أو القطر الذي يؤرخ عنه.

وعلى الطالب المبتدىء أن ينظر في هذه الرحلات كلها ليتعود عليها ويلم بأسمائها فإذا ما حان وقت العمل الجدي كانت قريبة إليه، مألوفة لعينه وقلبه ودماغه.

ومن الرحالة العرب الذين أدوا للعلم فوائد كبيرة:

١ – المسعودي الذي توفي سنة ٩٥٦ للميلاد، والرجل بغدادي شرقّ حتى الصين وغّرب حتى الصحراء الكبرى وبلاد السودان والمسعودي كتاب هام هو:

مروج الذهب ومعادن الجوهر

٢ – ابن حوقل : عاش في القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادي جاب القارة الأفريقية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي كما زار الصين والهند والأندلس. ومن كتبه المسالك والممالك وصورة الأرض.

٣ – البكرى وهو مؤرخ ورحالة أندلسي، له كتاب شهير هو المسالك والممالك وكتاب آخر هو تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان وقد عاش البكري في الفترة من ١٠٢٨ إلى ١٠٩٤ للميلاد.

٤ – الإدريسي، وهو أندلسي أيضا وإن هاجرت عائلته إلى الشمال الأفريقى، ودخل الإدريسي في خدمة الملك روجر الثاني ملك صقلية، وله كتاب معروف هو: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، وقد ولد الإدريسى في سبته المغربية سنة ١١٠٠ للميلاد.

٥ – ابن جبير وهو رحالة معروف قدم لنا وصفا تفصيليا للطريق التي سلكها من غرناطة حتى وصل الحجاز وأدى مناسك الحج. وقد طبعت رحلته تحت عنوان رحلة ابن جبير.

٦ – العمري صاحب الكتاب المعروف باسم مسالك الأبصار في الممالك والأمصار.

٧ – ابن بطوطة، وهو أشهر من نار على علم، وقد عاش في الفترة من ١٣٠٤ إلى ١٣١٧ للميلاد (٧٠٤/٧٧٩ هـ) قام بثلاث رحلات غطى فيها الشمال الأفريقى والحجاز وشرق وغرب أفريقيا والصحراء الكبرى وبلاد الصين، وقد طبعت رحلته تحت عنوان رحلة ابن بطوطة وأحيانا تحت عنوانها الأصلى: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

٨ – الحسن بن الوزان المعروف بليو الأفريقي Leo Africanus الذي ولد سنة خروج المسلمين من الأندلس ١٤٩٣ وأسرته جماعة من القراصنة المسيحيين سنة ١٥١٨ وقدموه للبابا ليو العاشر Leox وقد نشرت رحلة الوزان بالايطالية سنة ١٥٥٠ للميلاد وترجمت للإنجليزية سنة ١٦٠٠

للميلاد، وصدرت لها أخيرا ترجمة عربية جيدة نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت عنوان: وصف أفريقيا.

تدويبات :

توزع هذه الرحلات على الطلبة للاطلاع عليها، وتكليف كل طالب بكتابة مبحث يسير عن كل رحلة مبينا قيمتها التاريخية، ويلاحظ الطالب أنه ليس كل ما نشر في هذه الرحلات صحيحا، فالرحالة يخطئون ويصيبون ويسمعون فيكتبون وقد يكون ما سمعوه غير صحيح.

راجع ما ذكرناه عن تقويم المرجع. . .

* * *

وإذا كان سلفنا المُسلم لا يقصد من رحلته إلا العلم خالصا لوجه الله، فإن رحالة العصر الحديث ومكتشفيه من الأوروبيين – وإن كانوا قد أدوا للعلم الجغرافي والتاريخي فائدة غير منكورة – إلا أن أغراضهم السياسية والاستعمارية وتبعيتهم لجمعيات لا تخفي دورها الاستعماري قد شوه جهدهم العلمي، وكان لزاما على الباحث أو المحقق أن يتحرز فيما ينقله عنهم في بعض الأحيان، خاصة في مجال تفسيرهم للأحداث ووصفهم للمعتقدات.

وهناك كثير من الرحالة الأجانب جابوا منطقتنا العربية في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، والواقع أنه لا يمكننا تفريغ مضمون رحلات هؤلاء الأجانب من مضمونها السياسي. ومن هؤلاء الرحالة الدنمركي كارستن نيبور Carsten Niebur الذي قام برحلاته في الجزيرة العربية في الفترة من ١٧٢٤ إلى ١٧٦٥ وقد ترجم كتابه للانجليزية تحت عنوان:

Travels Through Arabia & Other countries in the East. 2 volumes.

وقد زاد الاهتمام بالجزيرة العربية في مطلع القرن التاسع عشر، وفي الفترة من منتصف القرن التاسع عشر حتى السنوات الأولى من القرن العشرين وظهرت أسماء رحالة كثيرة مثل: بلي Pely [1] وجرماني Guarmani وفالين Wallin وبالجريف Palgrave ودوتي Daughty وهوبرت Hubert وبيرتون Burton وبلنت Blunt .. وغيرهم.

---

(١) قام مؤلف هذا الكتاب بالاشتراك مع زميله الدكتور عوضة الجهني بترجمة رحلة بلي للرياض، ونشرتها جامعة الملك سعود (عمادة شئون المكتبات).

وفي أثناء الحملة التركية المصرية على نجد ١٨١١ - ١٨١٨ زادت نشاطات المستكشفين في الجزيرة العربية. ومن الرحالة المستكشفين الذين حققوا شهرة كبيرة بوركهارت الذي ادعى الإسلام أو أسلم وعرف باسم الشيخ إبراهيم بن عبدالله، وكان يعمل لحساب الجمعية البريطانية الإفريقية African Association وفيما يلي قائمة بأسماء بعض هؤلاء الرحالة وما كتبوه.(١)

Winder, Bayley: Saudi Arabia in the 19th Century. New york, 1965.

Hogarth, D.G.: The penetration of Arabia.

Arecord of the development of Western.

Knowledge Concerning the Arabia Peninsula.

London, 1901.

Burchardt: Notes on the Bedouins and Wahabys. 2 vols.(٢)

Palgrave, william Gippard: A narrative of a year's

Journey through central and Eastern

Arabia 1862- 1863. 2 vols London, Cambridge, 1965.

ويذكر الريحاني أن بالجريف ولد عبرانيا اسم أسرته كوهن، وصار بعدئذ مسيحيا ثم أبا يسوعيا ثم سياسيا ملحدا، وكان في سورية ضمن الآباء اليسوعيين ويدعى الأب ميخائيل.

Doughty : Travels in Arabia deserts.

London, 1964, 3vols.

Zwemer,s : Arabia, the Cradle of Islam.

London, 1908.

* * *

(١) قاسم، جمال زكريا: الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.
في : مصادر تاريخ الجزيرة العربية، بحوث الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية. الرياض، جامعة الرياض (الملك سعود) ١٣٩٧ (١٩٧٧م) جـ ٢ . ص ٩ - ٢٨.

(٢) قام مؤلف هذا الكتاب بالإشتراك مع زميله دكتور عبد العزيز الهلابي بترجمة رحلة بوركهارت للحجاز ، كما قام الدكتور اليمين بترجمة مقتطفات من ملاحظات بوركهارت عن البدو والوهابيين .

والواقع أن الرحالة والمستكشفين في التاريخ الحديث أكثر من أن يدخلوا تحت حصر، لكننا اكتفينا هنا بالإشارة إلى الرحالة الذين كان لهم دور في تاريخ منطقتنا العربية، وعلى الباحثين في مناطق أخرى أن يراجعوا الرحالة الذين جابوا هذه المناطق كجيمس بروس وسبيك وبيكر ولفنجستون وبارك وكلابرتون ولاندر وديجوكام وستانلي وجميعهم قاموا بدور في اكتشاف أفريقيا واستعمارها في العصر الحديث.

ومن المحال في كتاب كهذا أن نتناول كل الرحالة المعاصرين ونشير إليهم تفصيلا أو حتى إجمالا حتى لا يخرج هذا الكتاب عن مبتغاه، لكننا نشير هنا إلى قضيتين منهجيتين هما:

أولا ، أن هؤلاء الرحالة يعتمدون في كثير من الأحيان على الروايات الشفاهية المحلية، وذلك يجعل كتاباتهم حاوية ما تحويه الروايات الشفاهية من خلل أحيانا.

ثانيا ، أن هؤلاء الرحالة رغم علمهم الذي لا ينكر قد يجهلوا العادات والتقاليد المحلية فيفسرونها تفسيراً خاطئا، وقد يكون هذا التفسير مغرضا أيضا وسنضرب هنا نماذج لذلك:

يذكر منجو بارك وهو رحالة أوروبي جاب غرب أفريقيا وكانت احدى رحلاته سنة ١٧٩٥ – تحت عنوان ملك الوولي The King of Wooli :

«كانت المدينة Medina هي عاصمة مملكة وولي Wooli، والمدينة كلمة عربية تعني بالانجليزية City ، ولم يكن الاسم شائعا بين الزنوج، ويحتمل أن يكون المسلمون هم الذين أدخلوه».

لاحظ هنا إصرار منجو على الفصل بين الزنوج والمسلمين. إنه يتحدث عنهم كعنصرين مختلفين، وكأنما لا زنوج مسلمين، ولا مسلمين زنوج.. ثم لاحظ قوله إن الأسم غير شائع بين الزنوج. كيف ذلك مع أنها عاصمة مملكة؟ أما كون اسم (المدينة) من أصل عربي وأنه أتى في ركاب المسلمين فهذا أمر لا يدعو للظن أو الشك! ثم يستمر منجو بارك قائلا: «لقد حططت رحالي في المدينة، وهي واسعة.. ويحيط بها سور من الطين مرتفع.. وذهبت بعد الظهيرة لتقديم الاحترام للسلطة (الملك) ولأسأله السماح لي بالمرور عبر بلاده إلى بوندو Bondou .. ولقد ألقيت التحية على الملك باحترام وأخبرته عن أسباب زيارتي، وقد أجابني الملك قائلا: أنا لا أعطيك فقط حق المرور بل سأقدم لك بركاتي وتمنياتي بالسلامة.. وعندئذ شرع واحد من المرافقين لي في الغناء أو بالأحرى في الزئير فقد كان صوته قويا غير جميل، وقد كانت أغنيته بالكلمات

العربية، وعند كل مقطع من الأغنية كان الملك نفسه وكل المحيطين به يضربون بأيديهم على جباههم ويرددون بخضوع وتأثر شديد : آمين.. آمين».

من الواضح أن الرجل يدعو الله. ومن الواضح أن الملك ومن حوله يؤمنون على الدعاء، ومن الواضح أن الكلمات العربية، خاصة كلمات الدعاء مفهومة من الملك، ومن الواضح أن الملك مسلم، ورغم كل هذا فإن منجو بارك يعلق قائلا: «إن الملك لم يكن بالتأكيد مسلما» ولم يذكر لنا منجو بارك مصدر تأكيده هذا. ويستمر بارك قائلا «وربما فعل الملك ذلك لأن نفسه خيرة وطيبة»(١).

تعليل غريب، والغرض واضح. لقد أحال منجو بارك تمنياته بألا تكون هذه المناطق على الإسلام، إلى تقرير خالف به الواقع.

هذه مجرد أمثلة تجعل الباحث يخضع كتب الرحالة للنقد أو التقويم قبل الأخذ عنها.

الدوريات العلمية:

عادة ما تصدر الجامعات والمؤسسات الأكاديمية دوريات أو مجلات لتضم أبحاثا يتقدم بها الباحثون فيها.

وقد تكون هذه الدوريات شهرية أو فصلية (كل شهور ثلاث) أو سنوية. وغالبا ما تضم هذه الدوريات بحوثا قيمة. وعلى الباحث أن يعرف المؤسسات العلمية المهتمة بمجال بحثه. مثال ذلك الجمعية التاريخية المصرية، أقسام التاريخ في الجامعات العربية، مركز دراسات الخليج، جامعة الدول العربية، دارة الملك عبد العزيز وغيرها من المؤسسات المهتمة بالدراسات التاريخية، ومتابعة ما تنشره من دوريات.

فكلية التربية في جامعة الملك سعود على سبيل المثال تصدر مجلة دراسات الفصيلة وكلية الآداب تصدر مجلة كلية الآداب السنوية، ودارة الملك عبد العزيز تصدر مجلة الدارة الفصلية وجميعها تحوي مقالات وبحوثا لكبار المتخصصين.

والمجلات الأكاديمية لا تنشر بحثا في العادة إلا بعد عرضه على لجان تحكيم من

---

(١) Park, Mungo: Travels in the interior districts of Africa. 5th ed. London, 1807. pp. 20-25.

المتخصصين في مجال البحث فإذا أجازته نشر. وذلك مما يعطي البحث قيمة. وليس معني ذلك أن البحوث المنشورة خارج هذه المجلات الأكاديمية ليست بذات قيمة وحتى لا يضيع على الطالب أو الباحث اسم دورية ينصح بالرجوع لقوائم الدوريات التي تصدرها المكتبات.(١)

الصحافة كمورد تاريخي:

تغطي المادة الصحفية العربية أكثر من مائة وخمسين عاما، فقد صدرت في مصر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٨ هي الوقائع المصرية، وقبل الوقائع المصرية كانت الحملة الفرنسية على مصر قد أصدرت صحيفة تحمل عنوان Corrier de L'Egypte وذلك سنة ١٧٩٨، ثم توالت الصحف بعد ذلك سواء في مصر أو العالم العربي. ففي سنة ١٨٤٧ صدرت صحيفة المبشر في الجزائر، وفي ١٨٥٨ صدرت في لبنان صحيفة حديقة الأخبار وفي ١٨٦٠ صدرت في تونس صحيفة الرائد التونسي، وفي ١٨٦٥ صدرت صحيفة سورية في سورية وفي سنة ١٨٦٦ صدرت في ليبيا صحيفة طرابلس الغرب، وفي العراق صدرت سنة ١٨٦٩ صحيفة الزوراء، وفي ١٨٧٩ صدرت في اليمن صحيفة صنعاء وفي ١٨٨٩ صدرت في المغرب صحيفة المغرب وفي سنة ١٨٨٩ صدرت في السودان صحيفة الجازيت وفي ١٩٠٨ صدرت في السعودية صحيفة الحجاز وفي ١٩٢٨ صدرت جريدة الكويت.

ونحن هنا نذكر فقط أوائل الصحف، لكن هذا لا يعني أنها الصحف الوحيدة، بل صدر في كل بلد عربي بعد ذلك عديد من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية والدوريات السنوية .. الخ

هذا الكم الهائل هل يصلح مرجعا للتاريخ الحديث؟ وما طبيعة المادة الصحفية وكيف تستخدم؟

الواقع أن في الصحف مادة تاريخية ترقي في بعض الأحيان لمرتبة الوثائق من الطراز الأول، ومن ذلك:

١ - صفحات الوفيات في بعض الصحف العربية، تفيد كثيرا في تحديد تواريخ وفاة بعض الشخصيات، كما تفيد في معرفة الألقاب الشائعة وبعض العادات المتصلة بالموت (ذكري

(١) من ذلك قائمة دوريات مكتبة كلية التربية التي أصدرتها عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود ١٤٠٢/ ١٩٨٢ وغيرها كثير.

الأربعين، الذكري السنوية .. الخ) كما تفيد في معرفة الألقاب والعادات الاجتماعية، وتعطي هذه الصفحات مؤشرات خاصة على عدد الوفيات في الشخصيات العسكرية الهامة (الضباط مثلا) في أعقاب الحروب (حرب ٦٧ مثلا) ..

٢ – الإعلانات التجارية، تفيد في معرفة حالة السوق والبضائع المتوافرة وعلاماتها التجارية.... مما يفيد في مجال التاريخ الاقتصادي.

٣ – قوائم أسعار العملات، تعطي مؤشرا لقيمة العملات بعضها بالنسبة للبعض الآخر في الفترة موضوع الدراسة.

٤ – إخراج الصحيفة نفسها وحرفها الطباعي، ومادتها الصحفية تعطي معلومات مباشرة عن تطور الصحافة في الفترة موضوع الدراسة.

٥ – بالنسبة للذين يؤرخون للحياة الثقافية والفكرية يعتبر ما تنشره الصحف أحد المصادر لتقويم الحركة.

ما ذكرناه سابقا حقائق خالصة يمكن استخلاصها من الصحيفة سواء أكانت موجهة أم غير موجهة وسواء أكانت واقعة تحت ضغط أم غير واقعة.

أما ما هو مكتوب في الصحيفة من أخبار أو مقالات، فتلك لابد أن تخضع لما يخضع له المرجع من تقويم، وذلك بمعرفة اتجاهات الصحيفة واتجاهات الكاتب، والتوثق من الخبر من خلال صحف أخرى أو بمراجعة الوثائق كمصدر أساسي للتاريخ.

ونظرا لأهمية المادة الصحفية في التاريخ فقد عمد بعض الباحثين لتحليل محتوياتها وتصنيفها أو إدراجها تحت رؤوس موضوعات لتكون عونا للباحثين، ومن ذلك ما قام به الدكتور منصور ابراهيم الحازمي بالنسبة لبعض الصحف السعودية وهناك محاولات مشابهة في بلدان عربية أخرى.

أما الصحافة كمرجع للتاريخ الأوروبي الحديث فينصرف الحديث عنها كما انصرف إلى الحديث عن الصحافة كمرجع للتاريخ العربي، وإن كانت البدايات سابقة في معظم الحالات، فقد ظهرت الصحافة أول ما ظهرت في ألمانيا سنة ١٥٠٢ (New Zeitung) وفي بريطانيا ١٦٢٢ (Weekly News) وفي إيطاليا ١٥٦٦ وفي هولندا ١٦١٦ وفي السويد ١٦٢٤ وفي فرنسا ١٦٣١

وفي أمريكا ١٨٣٠ (The penny press) وعلى الدارس أو الباحث أن يلم بهذه التواريخ وقت الضرورة حال قيامه بالتاريخ لإحدى هذه المناطق أو سواها.

في نسبية المصدر والمرجع:

اتضح لنا من السياق العام لما ذكرناه في البابين الأول والثاني أن المصدر نقصد به (الوثيقة والمسكوكة والأثر) أو بمعنى آخر أن المصدر هو الذي لم يرد به كاتبه أو صانعه أن يكون شاهدا على التاريخ، ومن هنا تأتي أهميته وصدقه وحياده. أما المرجع فهو كتاب مؤلف تتراوح قيمته وفقا لتوثيقه والنص على مصادره ومراجعه وشموله وتغطيته كل عناصر الموضوع، وتعمق المؤلف في موضوعه، وتحصيله درجات علمية عليا. . . . الخ.

إلا أن الأمر ليس كذلك دائما، فالمراجع التي كتبت في العصر الذي أقوم بالتاريخ له أحيانا يعتبرها بعض الباحثين مصادر، والكتب التي كتبت في عصور لاحقة للعصر الذي أقوم بالتاريخ له تعتبر مراجع، كما أن الباحث عندما يؤرخ لحياة شخص ودوره مثلا فإن الكتب أو الإنتاج الذي كتبه الشخص الذي أقوم بالتاريخ له تعد مصادر. وما كتب عنها مراجع، فكتابات الشيخ محمد بن عبد الوهاب مثل كتاب التوحيد المشهور تعد مصادر بالنسبة لباحث يكتب عن الشيخ محمد، أما ما كتبه آخرون عن الشيخ فتعد مراجع . . وهكذا.

وهذه التفرقة بين المصدر Source والمرجع resource تعتبر مسألة نسبية، وإن كان الباحثون في التاريخ يميلون عموما لما ذهبنا إليه من اعتبار (الوثائق والمسكوكات والآثار) مصادر وما سواها مراجع.

ويميل أمناء المكتبات، والعاملون في حقل المعلومات إلى اعتبار (دوائر المعارف، والقواميس، والأطالس، والكتب الموجزة، والأدلة..) مراجع ويفردون لها مكانا خاصا، وما سواها مجرد كتب، وهم يتخذون أساسا لهذا طريقة ترتيب المادة فقط، وبطبيعة الحال فإن هذا الأساس للتقسيم لا يصلح بالنسبة للباحثين في مجال التاريخ.

كتب التاريخ ومراجعه في المكتبات العربية والأجنبية:

في الباب الأول قدمنا لك تعريفا بدور الوثائق في العالم وذكرنا لك شيئا عن نظمها ولوائحها حتى يتسنى لك التعامل معها والحصول منها على صور الوثائق التي يتطلبها بحثك.

وفي هذه الفقرة من الفصل الثاني نقدم لك إلمامه عملية عن أماكن وجود كتب التاريخ في المكتبات.

ومما يؤسف له أن كثيرا من مصادر الدراسات التاريخية لا يضعه المصنفون في قسم التاريخ، مما يضيع على الباحث غير الخبير بنظم التصنيف في المكتبات مراجع كثيرة، ومثال ذلك أن المسكوكات Numes matics المنشورة يضعها المصنفون في قسم الفنون (٧٠٠) مع أن الباحثين الذين نشروا هذه المسكوكات قصدوا بها أساساً خدمة البحوث التاريخية. حقيقة أن الدارسين لتطور الخط يرجعون إليها، ولكن الحقيقة أن تطور الخطوط أو علم الباليوجرافيا Pa-leography هو أيضا من العلوم المساعدة للتاريخ، وحقيقة أيضا أن المسكوكات (فن) بما تحويه من زخارف ورسوم، لكنني أرى أنها أقرب لمصادر التاريخ، منها لمصادر الفنون. وليس هذا مجال نقد نظم التصنيف، ولكنني هنا بصدد تنبيه الباحثين إلى ضرورة مراجعة قسم الفنون (٧٠٠) للحصول على المسكوكات المنشورة التي تخص بحوثهم.

مسألة أخرى تفوت على الباحثين في مجال التاريخ مراجع كثيرة جدا، ذلك أن المصنفين في المكتبات يضعون تاريخ التعليم في قسم التعليم مع أن الكتاب قد يكون رسالة من قسم التاريخ، ويضعون تاريخ النظم السياسية في قسم العلوم السياسية (٣٢٠) وتاريخ القانون في قسم القانون (٣٤٠) وتاريخ الاقتصاد في قسم الاقتصاد (٣٣٠) ... الخ. مع أن هذه الكتب قد تكون من تأليف مؤرخين.

لذلك يتعين على الباحث التاريخي في مجال تاريخ العلوم أو تاريخ الحضارة أن يراجع القسم الموضوعي الذي يخصه فإن كان يبحث في تاريخ الزراعة فعليه أن يراجع قسم الزراعة، فمن المؤكد أنه سيحصل على مراجع هامة لموضوعه.

وجرت عادة المصنفين أن يضعوا عصور ما قبل التاريخ مع الجيولوجيا في العلوم البحتة.

ويفوت كثير من الباحثين خيراً كثيراً بإغفالهم بعض المراجع التي تبدو وكأنها غير تاريخية،

فكتب الانثروبولوجيا Anthropology من ألزم المراجع للباحث في التاريخ الأفريقي ليس باعتبارها علماً مساعداً فقط وإنما لاحتوائها على حقائق تاريخية.

وتختلط كتب السيرة النبوية وكتب أحاديث الرسول (ص) وكتب التاريخ الإسلامي، اختلاطا تكامليا بحيث يمكن القول إن الباحث في التاريخ الإسلامي لا غني له عن مراجعة كتب الدين بفروعها المختلفة، وكتب الدين الإسلامي في قسم (٢٠٠)[1]

هذه ملاحظات مبدئية أضعها بين أيدي طلابي، والباحثين، ثم نشرع الآن في الحديث بإيجاز عن قسم التاريخ في المكتبات وعلاقته بالأقسام الأخرى : التصنيف الذي تستخدمه المكتبات في معظم بلاد العالم العربي هو تصنيف ديوى العشري Dewey Decimal Classification وهذا التصنيف يقسم المعرفة لعشرة أقسام، آخرها هو التاريخ، ويعطي هذا التصنيف لكل قسم رمزا رقميا على النحو التالي:

من ٠٠ إلى ٩٩	معارف عامة
من ١٠٠ إلى ١٩٩	فلسفة وعلم نفس
من ٢٠٠ إلى ٢٩٩	الديـــن
من ٣٠٠ إلى ٣٩٩	علوم اجتماعية
من ٤٠٠ إلى ٤٩٩	اللغـــــات
من ٥٠٠ إلى ٥٩٩	العلوم البحتة
من ٦٠٠ إلى ٦٩٩	العلوم التطبيقية
من ٧٠٠ إلى ٧٩٩	الفنـــــون
من ٨٠٠ إلى ٨٩٩	الأدب
من ٩٠٠ إلى ٩٩٩	الجغرافيا والتاريخ

(١) عمل كاتب هذه السطور فترة من حياته في مجال المكتبات وتصنيف الكتب، وما ذكره هنا خبرات وملاحظات أقدمها بين أيدي المهتمين بالبحوث التاريخية.

فاذا ما انتقلنا إلى القسم الأخير وهو الذي يهمنا بشكل أساسي وجدنا التقسيمات الهامة التالية :

٩٠١ كتب الحضارة

٩٠٢ الكتب الموجزة أو الملخصة في التاريخ والجغرافيا

(الكتب هنا ذات طابع عام)

٩٠٣ القواميس التي تتناول المصطلح التاريخي والجغرافي

٩٠٧ تعليم التاريخ

٩٠٩ تاريخ العالم (عام)

٩٢٠ تراجم الأشخاص

من ٩٣٠ إلى ٩٣٩ التاريخ القديم

وينقسم على النحو التالي :

٩٣١ التاريخ القديم للصين

٩٣٢ تاريخ مصر القديم

٩٣٣ تاريخ فلسطين القديم

٩٣٤ تاريخ الهند القديم

... .

٩٣٧ تاريخ روما القديم

٩٣٨ تاريخ اليونان القديم

من ٩٤٠ إلى ٩٤٩ تاريخ أوروبا :

٩٤١ اسكتلندا وإيرلندا

٩٤٢ إنجلترا

٩٤٣ ألمانيا

٩٤٤ فرنسا

٩٤٥ إيطاليا

... . الخ

من ٩٥٠ إلى ٩٥٩ تاريخ آسيا :

٩٥١ تاريخ الصين

٩٥٢ اليابان

٩٥٣ شبه الجزيرة العربية

٩٥٤ الهنـــد

٩٥٥ إيـــــران

٩٥٦ الشرق الأدنى

٩٥٧ سيبيريا

٩٥٨ آسيا الوسطى

٩٥٩ جنوب شرق آسيا

٩٦٠ - ٩٦٩ تاريخ أفريقيا :

٩٦١ شمال أفريقيا

٩٦٢ مصـــــر

٩٦٣ الحبشة

٩٦٤ مراكش

٩٦٥ الجزائر

٩٦٦ افريقيا الغربية

٩٦٧ افريقيا الوسطى

٩٦٨ افريقيا الجنوبية

٩٦٩ جنوب المحيط الهادى

٩٧٠ - ٩٧٩ أمريكا الشمالية :

٩٧١ كندا

٩٧٢ المكسيك

٩٧٣ الولايات المتحدة الأمريكية

٩٨٠ - ٩٨٩ أمريكا الجنوبية

٩٩٠ - ٩٩٩ المحيط الهادي

٩٩١ أندونسيا . . . الخ[١]

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن كل المكتبات تعزل القواميس ودوائر المعارف والكتب عديدة المجلدات في مكان خاص أو قاعة خاصة يطلق عليها اسم قاعة المراجع وذلك غير مجموعة الكتب الأخرى. ولابد للباحث أن يتنبه لذلك. كما أن المخطوطات لا تحفظ في المكان الذي تحفظ فيه الكتب المطبوعة.

استخدام فهرس المكتبة :

وفي معظم المكتبات أربعة فهارس رئيسية هي :

١ - فهرس المؤلف : حيث تصف البطاقات صفا هجائيا باسم المؤلف وغالبا ما يتخذ الاسم الأخير أساسا للترتيب فمثلا محمد بن اسماعيل البخاري تجده في حرف الباء (البخاري، محمد

بن اسماعيل) وبعض المكتبات لا ترتب البطاقات بالاسم الأخير إلا في حالة الأسماء السابقة على سنة ١٨٠٠ أما الأسماء بعد هذا التاريخ فتجدها في الاسم الأول للمؤلف. مثلا: طه حسين تجده في حرف الطاء (طه) وليس في حرف الحاء (حسين).

٢ – فهرس العنوان : يتكون من نفس البطاقات ولكن أساس صف البطاقات هو العنوان وليس اسم المؤلف. مثال: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا تأليف الدكتور حسن محمود تجده في حرف الألف (الإسلام والثقافة العربية.... الخ)

٣ – الفهرس المصنف : وترتب البطاقات فيه وفقا لرقم التصنيف، فمثلا تاريخ أوروبا تجده في الأرقام من ٩٤٠ إلى ٩٤٩... (راجع موجز أرقام التصنيف التي ذكرناها سابقا).

٤ – فهرس الموضوع : وترتب فيه البطاقات تحت رؤوس موضوعات مثل : الانثروبولوجيا، المماليك، العثمانيون ... الخ.

وهذا الفهرس غير موجود في كثير من المكتبات لصعوبة استخدام رؤوس الموضوعات.

ضرورة الرجوع لفهارس المكتبات المطبوعة:

يضطر الباحث لمعرفة ما هو مكتوب في مجال بحثه في المكتبات الأخرى غير مكتبات دولته، ولما كان الانتقال إلى كل مكتبات العالم أمراً صعبا، لذلك يمكن للباحث أن يطلع على عناوين ما هو موجود في تلك المكتبات بواسطة فهارسها المطبوعة والتي غالبا ما تكون موجودة في مكتبات بلده. ذلك أن المكتبات الكبرى في العالم تطبع فهارسها وتهديها إلى المكتبات في البلاد الأخرى.

ومن الفهارس المطبوعة، والموجودة في مكتبات جامعات المملكة العربية السعودية على سبيل المثال:

– النشرة المصرية للمطبوعات التي تصدرها دار الكتب المصرية، مدرجة فيها كل ماتنتجه المطابع المصرية.

– فهرس المكتبة الظاهرية بدمشق .

– فهرس مكتبة الكونجرس ... الخ

وبطبيعة الحال، فإن فائدة هذه الفهارس لاتتعدي الإفادة عما هو موجود في مجال بحث الباحث. أما إن أراد الباحث استعارة هذه الكتب أو قراءتها، فليس أمامه إلا واحداً من سبل ثلاث :

(أ) أن يسافر إلى حيث توجد هذه المكتبة .

(ب) أن يراسل هذه المكتبة ويطلب منها تصوير مايريده نظير مبلغ معلوم .

(جـ) أن يطلب من المسئولين عن المكتبات في بلده، أن يستعيروا له هذا الكتاب من المكتبة الأخرى بضمانها - أي بضمان مكتبة بلده - وذلك إذا كان نظام تبادل الاستعارات بين المكتبات معمولاً به .